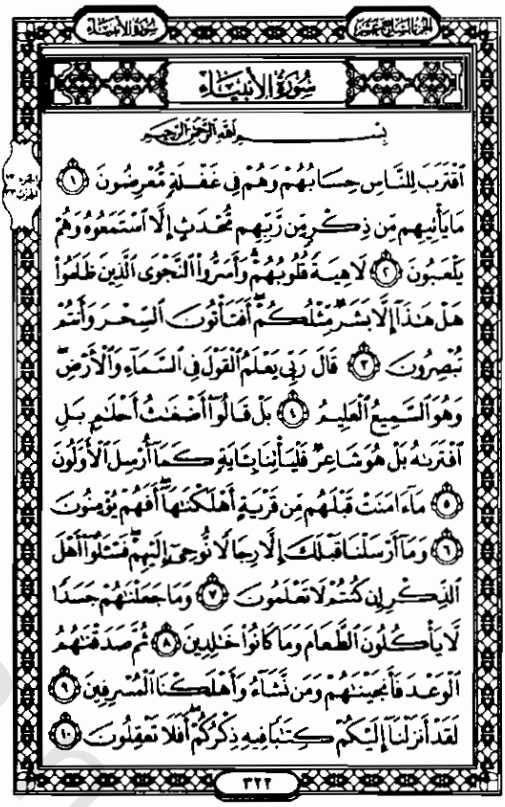

الجزء السابع عشر سورة الأنبياء

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون (١)
ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم
يلعبون (٢) لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا
هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم
تبصرون (٣) قال ربي يعلم القول في السماء والأرض
وهو السميع العليم (٤) بل قالوا أضغاث أحلام بل
افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون
(٥) ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون
(٦) وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل
الذكر إن كنتم لا تعلمون (٧) وما جعلناهم جسدا
لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين (٨) ثم صدقناهم
الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين (٩)
لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون (١٠)

٣٢٢

سورة الأنبياء

معانى الكلمات :

غفلة : لهو ونسيان .

ذكر : قرآن .

محدث : جديد .

لاهية : غافلة .

أضغاث : خرافات .

افتراه : وضعه .

صدقناهم : حققنا لهم .

ذكركم : شرفكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر أهمية القلوب فهى موضع التأمل والتدبر والتفكير .

٢ ـ أن نعلم ما كان عليه المشركون من غفلة ولهو وإعراض .

٣ ـ أن نعلم أن الإنسان فى حاجة إلى تذكير دائم بيوم القيامة وعلينا البلاغ .

المحتوى التربوى :

يعالج سياق السورة موضوع العقيدة بعرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها ، فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون ، يسير على نواميسه الكبرى ، وهى تقوم على الحق الذى قامت عليه السموات والأرض، وعلى الجد الذى تدبر به السموات والأرض ، وليست لعبا ولا باطلا ، كما أن هذا الكون لم يخلق لعبا ، ولم يشب خلقه باطل .

ويبدأ السياق بمطلع قوى الضربات يهز القلوب هزا ، وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحدق وهى عنه غافلة لاهية ، مطلع قوى يهز الغافلين هزا والحساب يقترب وهم فى غفلة ، والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى ، والموقف جد وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته ، وكلما

obeikandl.com

جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار واستمعوه وهم هازلون يلعبون ، لا تلتفت إليه قلوبهم ، والقلوب هى موضع التأمل والتدبر والتفكير .

يقول صاحب الظلال : « وهؤلاء الذين يصفهم القرآن الكريم كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستوراً للحياة ومنهاجا للعمل ، وقانونا للتعامل ـ باللعب ، ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة ، وأمثال هؤلاء موجودون فى كل زمان ، فحيثما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائهة التى يرسمها القرآن ، والتى تحيل الحياة كلها إلى هزل فارغ لا هدف له ولا قوام ... فهذا فرق ما بين القلوب الحية المتلقية المتأثرة ، والقلوب الميتة المغلقة الخامدة التى تكفن ميتتها باللهو ، وتوارى خمودها بالاستهتار ، ولا تتأثر بالذكر لأنها خاوية من مقومات الحياة » .

﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ **قال الشيخ أبو زهرة فى زهرة التفاسير** : « الضمير الفاعل لـ ﴿ ٱلْقَوْلَ ﴾ يعود على النبى ﷺ ؛ لأنه المذكور قبل ذلك ؛ إذ هو الرسول الأخير الذى خاطب المشركين وأسروا له النجوى وخرجوا إليه بالطعن فيه وصرف الذين اتبعوه عنه ، فهو يبين فى هذا أن الذى يأتمرون به من نجوى أو جهر يعلمه الله وهو فى معنى التفويض إليه سبحانه ؛ لأنه رسوله الذى أرسله ، وكل كيد له هو لتعويق الرسالة فهو حافظه وكالئه ، وهو الذى يحمى الذين اتبعوه عن فتنة القول الذى يدبره هؤلاء المشركون » .

وقد كانوا يتناجون فيما بينهم ويتآمرون خفية ، فهم على موت قلوبهم وفراغها من الحياة لم يكونوا يملكون أنفسهم من أن تتزلزل بهذا القرآن ، فكانوا يلجؤون فى مقاومة تأثيره الطاغى إلى التعلات ، يقولون : إن محمدًا بشر ، فكيف تؤمنون لبشر مثلكم ؟ وإن ما جاء به السحر ، فكيف تجيئون للسحر وتنقادون له وفيكم عيون وأنتم تبصرون ؟ !

عند ذلك وكل الرسول ﷺ أمرهم وأمره إلى ربه ، وقد أخبره الله بنجواهم التى أداروها بينهم خفية ، وأطلعه على كيدهم الذى يتقون به القرآن ، وأثره ، فهو الذى يعلم القول فى السماء ولقد حاروا كيف يصفون هذا القرآن وكيف يتقونه ، فقالوا : إنه سحر ، وقالوا : إنه أحلام مختلطة يراها محمد ويرويها ، وقالوا : إنه شاعر ، وقالوا : إنه افتراه وزعم أنه وحى من عند الله ، وينتقلون من ادعاء إلى ادعاء حائرين ثم يخلصون من الحرج بأن يطلبوا بدل القرآن خارقة من الخوارق التى جاء بها الأولون ، ولقد جاءت الخوارق من قبل وتكررت الآيات ، وتكرر التكذيب بها ، وتكرر كذلك إهلاك المكذبين،فما بال هؤلاء سيؤمنون وهم ليسوا سوى بشر كهؤلاء الهالكين.

واقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر ، يتلقون الوحى فيدعون به الناس وما كانوا إلا رجالا ذوى أجساد، وأكل الطعام من مقتضيات الجسدية، والجسدية من مقتضيات البشرية،

وهم بحكم بشريتهم يكونوا خالدين ، وليسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل إن كانوا هم لا يعلمون .

يقول صاحب الظلال : «لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر ، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم ، وسلوكهم العملى نموذجا حيا لما يدعون إليه الناس ، فالكلمة الحية الواقعية هى التى تؤثر وتهدى ؛ لأن الناس يرونها ممثلة فى شخص مترجمة إلى حياة ، وأيما داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش حياتهم ، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه ، ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول ، لما بينه وبينهم من قطيعة فى الحس والشعور .

وأيما داعية لا يصدق فعله قوله ، فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة ، فالكلمة البسيطة التى يصاحبها الانفعال ويؤيدها العمل هى الكلمة المثمرة التى تحرك الآخرين إلى العمل».

تلك سنة الله فى اختيار الرسل ، ومثلها سنته فى إنجائهم ومن معهم ، وإهلاك المسرفين الظالمين المكذبين ، فهى كذلك سنة جارية كسنة اختيارهم ، وقد وعدهم الله النجاة هم والمؤمنون معهم إيمانا حقيقيا يصدقه العمل ، فصدقهم وعده ، وأهلك الذين كانوا يسرفون عليهم ، ويتجاوزون الحد معهم .

ثم أرسل إليهم كتابا يشرفهم ؛ لأنه بلغتهم ويقوم حياتهم ، ويخلق منهم أمة ذات سيادة فى الأرض وذكر فى الناس، وهو مفتوح للعقول تتدبره ، وترتفع به فى سلم البشرية ، ومعجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال ، وليست كالخوارق المادية التى تنقضى فى جيل واحد ، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل .

ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا ، فلم يكن لهم قبله ذكر ، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية ، فتعرفه لهم وتذكرهم به ، ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب ، وقادوا به البشرية قرونا طويلة ، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب ، حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية، وانحط فيها ذكرهم ، وصاروا ذيلا للقافلة يتخطفهم الناس ، وكانوا بكتابهم يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون ، وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة الاستعداد ليوم القيامة بالإيمان والطاعة قبل فوات الأوان .

٢ ـ على الداعية أن يصدق فعله قوله حتى لا تقف كلماته على أبواب الآذان .

٣ ـ باتباع القرآن يرتفع قدر الإنسان .

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ
وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

معانى الكلمات :

قصمنا : أهلكنا .

أحسوا : أدركوا .

أترفتم : نعمتم .

حصيدا : مثل النبات المحصود .

خامدين : ميتين .

نقذف : نرمى .

فيدمغه : فيمحوه .

يستحسرون : يتركون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على عاقبة الظالمين .

٢ ـ أن نعلم أن الحق قائم والباطل إلى زوال .

٣ ـ أن نعلم أن وحدة النظام دالة على وحدة المنظم، ووحدة الوجود دالة على وحدة الموجد .

المحتوى التربوى :

لقد كانت رحمة بهم أن ينزل الله لهم هذا القرآن ولا يأتيهم بالخارقة التى يطلبونها ، فلا يأخذهم وفق سنته القاصمة كالقرى التى كذبت فاستؤصلت ، وهنا يعرض مشهد حيًّا من القصم والاستئصال ، والقصم أشد حركات القطع ؛ فالدمار يحل بالديار والدَّيار ، والإنشاء يبدأ بالديارين فيعيدون إنشاء الدور .

ثم ننظر فنشهد حركة القوم فى تلك القرى وبأس الله يأخذهم ، وهم كالفئران فى المصيدة يضطربون من هنا إلى هناك قبيل الخمود ، يسارعون بالخروج من القرية ركضا وعدوا ، وقد تبين لهم أنهم مأخوذون ببأس الله ، كأنما الركض ينجيهم من بأس الله ، وكأنما هم أسرع عدواً فلا يلحق بهم حيث يركضون ، ولكنها حركة الفأر فى المصيدة بلا تفكير ولا شعور .

obeikandi.com

عندئذ يتلقون التهكم المرير : لا تركضوا من قريتكم ، وعودوا إلى متاعكم الهنىء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح ، عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم أنفقتموه ؟ ! وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب ، إنما هو التهكم والاستهزاء ! عند ذلك يفيقون فيشعرون بألا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط ، وأنه لا ينفعهم ركض ولا ينقذهم فرار ، فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار ، ولكن قد فات الأوان ، فليقولوا ما يشاؤون ، فإنهم لمتروكون يقولون حتى يقضى الأمر وتخمد الأنفاس ، وياله من حصيد آدمى لا حركة فيه ولا حياة ؛ وكان منذ لحظة يموج بالحركة وتضطرب فيه الحياة .

ثم يربط السياق بين العقيدة التى سبق الحديث عنها ، وسننها التى تجرى عليها ، والتى تأخذ المكذبين بها ، يربط بينها وبين الحق الكبير والجد الأصيل ؛ فلقد خلق الله سبحانه هذا الكون لحكمة ، لا لعبا ولا لهواً ، ودبره بحكمة لا جزافا ولا هوى ، وبالجد الذى خلق به السماء والأرض وما بينهما أرسل الرسل وأنزل الكتب وفرض الفرائض ، وشرع التكاليف ، فالجد أصيل فى طبيعة هذا الكون ، أصيل فى تدبيره ، أصيل فى العقيدة التى أرادها الله للناس ، أصيل فى الحساب الذى يأخذهم به بعد الممات .

ولو أراد الله ـ سبحانه ـ أن يتخذ لهوًا لاتخذه من لدنه لهواً ذاتيا لا يتعلق بشىء من مخلوقاته الحادثة الفانية ، ولن يكون ، لأن الله ـ سبحانه ـ لم يرده ابتداء ولم يوجه إليه إرادته أصلا ، وإنما الناموس المقرر والسنة المطردة ألا يكون هناك لهو ، إنما يكون هناك جد ، ويكون هناك حق ؛ فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض .

وغلبة الحق وزهوق الباطل تجرى به السنة ويقتضيه الناموس ، فالحق قذيفة فى يد القدرة تقذف به على الباطل ، فيشق دماغه فإذا هو زاهق هالك ذاهب ، هذه هى السنة المقررة ، فالحق أصيل فى طبيعة الكون ، عميق فى تكوين الوجود ، والباطل منفى عن خلقة هذا الكون أصلا ، طارئ لا أصالة فيه ولا سلطان له يطارده الله ويقذف عليه بالحق فيدمغه ، ولا بقاء لشىء يطارده الله .

يقول صاحب الظلال: « لقد يخيل للناس أحيانا أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التى يقررها العليم الخبير ، وذلك فى الفترات التى يبدو فيها الباطل منتفشا كأنه غالب ، ويبدو فيها الحق منزويا كأنه مغلوب ، وإن هى إلا فترة من الزمان يمد الله فيها ما يشاء ، للفتنة والابتلاء ثم تجرى السنة الأزلية الباقية التى قام عليها بناء السماء والأرض ، وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء ، والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك فى صدق وعده ، وفى نصرة الحق الذى يقذف به على الباطل فيدمغه ، وإذا ابتلاهم الله بغلبة الباطل حينا من الدهر وعرفوا أنها الفتنة ، وأدركوا أنه الابتلاء ، وأحسوا أن ربهم يربيهم ؛ لأن فيهم ضعفا أو نقصا ، وهو يريد أن يعدهم لاستقبال

الحق المنتصر ، وأن يجعلهم ستار القدرة ، فيدعهم يجتازون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف وكلما سارعوا إلى العلاج قصر الله عليهم فترة الابتلاء ، وحقق على أيديهم ما يشاء .

ثم يعرض لهم نموذجا من نماذج الطاعة والعبادة فى مقابل عصيانهم وإعراضهم ، نموذجا ممن هم أقرب منهم إلى الله ، ومع هذا ، فالملائكة دائبون على طاعته وعبادته ، لا يفترون ولا يقصرون .

ويعرض السياق دليل الوحدانية من المشهود فى نظام الكون وناموسه الواحد الدال على المدبر الواحد ، ومن المنقول عن الكتب السابقة عند أهل الكتاب ، ويأتى السؤال عن اتخاذهم آلهة سؤال استنكار للواقع منهم ، ووصف الآلهة بأنهم يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء فيه تهكم بتلك الآلهة .

وهناك الدليل الكونى المستمد من واقع الوجود ، فالكون قائم على الناموس الواحد الذى يربط بين أجزائه جميعا ، وهذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد ، فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات ، ولتعددت النواميس تبعا لها ولانعدمت الوحدة التى تنسق الجهاز الكونى كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه، ولوقع الاضطراب والفساد تبعا لفقدان التناسق، هذا التناسق الملحوظ الذى لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس .

وهم يصفون الله تعالى بأن له شركاء ، تنزه الله المتعالى المسيطر فهو رب العرش والعرش رمز السيطرة والملك والاستعلاء ، ومتى كان المسيطر على الوجود كله يسأل ، ومن الذى يسأله وهو القاهر فوق عباده ، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى ، فسبحانه هو أولى بألا يسأل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر فى العقول من أن ما يفعله كله مفعول بحكمة ولا يجوز عليه خطأ،والذى يعلم كل شىء ويدبر كل شىء ويسيطر على كل شىء لا يسأل وغيره مسؤول.

وإلى جانب الدليل الكونى المستمد من طبيعة الوجود وواقعه يسألهم عن الدليل النقلى الذى يستندون إليه فى دعوى الشرك التى لا تعتمد على دليل ، فهذا القرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول ﷺ وذكر من سبقه من الرسل ، وليس فيها جاؤوا به ذكر الشركاء ، ولكنهم لا يعلمون فهم معرضون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الجد أصيل فى هذا الكون ، والجدية طبع فى المؤمن .

٢ ـ الحق قذيفة فى يد القدرة تتسلمها اليد المؤمنة عندما تستكمل النقص وتعالج الضعف .

٣ ـ الإسلام يعد كل حركة وكل نفس عبادة إذا توجه بها صاحبها إلى الله تعالى .

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا سُبۡحَٰنَهُۥۚ
بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم
بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ
جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا
مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ
رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ
يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ
ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ
ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ
ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾
٣٢٤

معانى الكلمات :

مشفقون : خائفون حذرون .

رتقا : متصلتين .

ففتقناهما : ففصلنا بينهما .

رواسى : جبالا ثوابت .

تميد : تضطرب .

فجاجا : طرقا .

فلك : مدار .

فتنة : امتحانا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيده والإيمان به وطاعته .

٢ ـ أن نقف على دقة النظام الإلهى وعظيم العلم والحكمة له سبحانه وتعالى .

٣ ـ أن نعلم العلة من وجود الخير والشر فى هذه الحياة .

المحتوى التربوى :

يعلن السياق أن التوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس ، لا تبديل فيها ولا تحويل ، توحيد الإله وتوحيد المعبود فلا انفصال بين الألوهية والربوبية ، ولا مجال للشرك فى الألوهية ولا فى العبادة .

ثم يعرض السياق لدعوى المشركين من العرب أن لله ولداً ، وهى إحدى مقولات الجاهلية السخيفة ، والذى يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب فى بنوة الملائكة ، وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة ، فهم ليسوا بنات لله ـ كما يزعمون ـ بل عباد مكرمون عند الله ، لا يقترحون عليه شيئا تأدبا وطاعة وإجلالاً ، إنما يعملون بأمره لا يناقشون ، وعلم الله بهم محيط ، ولا يتقدمون

بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضى أن يقبل الشفاعة فيه ، وهم بطبيعتهم خائفون لله مشفقون من خشيته ، وهم لا يدعون الألوهية قطعا ، ولو ادعوها ـ جدلا ـ لكان جزاؤهم جزاء من يدعى الألوهية كائنا من كان ، وهو جهنم ، فذلك جزاء الظالمين الذين يدعون هذه الدعوى الظالمة لكل حق ولكل أحد ، ولكل شىء فى هذا الوجود ، وكذلك يلمس الوجدان بمشهد الملائكة طائعين لله مشفقين من خشيته ، بينما المشركون يتطاولون ويدعون .

ثم يجول السياق بالقلب البشرى فى مجالى الكون الضخمة ، ويد القدرة تدبره بحكمة ، وهم معرضون عن آياتها المعروضة على الأنظار والقلوب ، فالسموات والأرض الجميع كان متصلا بعضه ببعض متلاصقًا متراكمًا ، بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ، فجعل السموات سبعا والأرض سبعا ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ، لذا نبه أنه عز وجل جعل من الماء الحياة فأصل كل الأحياء منه ، ويستنكر ألا يؤمنوا بها ، وهم يرونها مبثوثة فى الوجود ، وكل ما حولهم فى الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم .

ثم يمضى فى عرض مشاهد الكون الهائلة ، فيقرر أن هذه الجبال الرواسى تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضطرب ، وهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها ، وذكر الفجاج فى الجبال ، وهى الفجوات بين حواجزها العالية ، وتتخذ سبلا وطرقا ، ذكر هذه الفجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء يصور الحقيقة الواقعة أولا ، ثم يشير من طرف خفى إلى شأن آخر فى عالم العقيدة ، فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان كما يهتدون فى فجاج الجبال .

ويقرر القرآن أن السماء سقف محفوظ ، محفوظ من الخلل بالنظام الكونى الدقيق ، ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزا للعلو الذى تتنزل منه آيات الله ، ومحفوظ من التغير بالمؤثرات ، مهما تطاول الزمان والكافرون ، عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر ؛ بالشمس والقمر وسائر النيرات ، ومسايرها وطلوعها وغروبها ، على الحساب القويم والترتيب العجيب ، الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة ، وأى جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به ، همه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ودبرها ونصبها هذه النصبة ، وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو ، عزّت قدرته ولطف علمه ؟ !

وقرئ ﴿ عَنْ ءَايَتِهَا ﴾ على التوحيد اكتفاء بالواحدة فى الدلالة على الجنس ، أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمريها والاهتداء بكواكبها ، وحياة الأرض والحيوان بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على الخالق معرضون .

ويقرر السياق أن الليل والنهار ظاهرتان كونيتان ، والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان فى الأرض وبالحياة كلها ، والتأمل فى توالى الليل والنهار ، وفى حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التى لا تختل مرة ، وبهذا الاطراد الذى لا يكف لحظة جدير بأن يهدى القلب إلى وحدة الناموس ، ووحدة الإرادة ، ووحدة الخالق المدبر القدير ؛ فقد خلق الليل فى ظلامه وسكونه ، والنهار بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى ، وعكسه الآخر .

وجعل للشمس نورا يخصها وفلكا بذاته ، وزمانا على حدة ، وحركة وسيراً خاصا ، وجعل القمر بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر ، وكل من الشمس والقمر فى فلك يدورون كما يدور المغزل فى الفلكة .

وفى نهاية الشوط يربط السياق بين نواميس الكون فى خلقه وتكوينه وتصريفه ، ونواميس الحياة البشرية فى طبيعتها ونهايتها ومصيرها ؛ فكل حادث فهو فان ، وكل ما له بدء فله نهاية ، وإذا كان الرسول ﷺ يموت فهل هم يخلدون ؟ وإذا كانوا لا يخلدون فما لهم لا يعملون عمل أهل الموتى ؟ وما لهم لا يتبصرون ولا يتدبرون ؟

ويقرر السياق موت الجميع فهذا هو الناموس الذى يحكم الحياة ، وهذه هى السنة التى ليس لها استثناء ، ولابد من استعراض هذه الحقيقة فى النفس، حقيقة أن الحياة فى هذهالأرض موقوتة، محدودة بأجل ، ثم تأتى نهايتها حتما ، يموت الصالحون ويموت الطالحون ، يموت المجاهدون ويموت القاعدون ، فما أجدر الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق .

وأنَّ ما يصيب الإنسان فى أثناء الرحلة من خير وشر فهو فتنة له وابتلاء ، والابتلاء بالشر مفهوم أمره ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره عن الضرّ ، ومدى ثقته فى الله ، والابتلاء بالخيرا أشد وطأة ، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر ، فكثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ، ولكنَّ قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ جميع المخلوقات لا يستكبرون عن عبادته ، ولا يقصرون فيها ، فليتعلم الإنسان أن يكون مثلهم .

٢ ـ الكون كتاب الله المشهود دليل لمن تدبره على الخالق الواحد الفرد الصمد .

٣ ـ الحياة فى الأرض موقوتة محدودة ، والعاقل من يقتنص بالدنيا الآخرة .

٤ ـ اليقظة للنفس فى الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها فى الابتلاء بالشر ، والصلة بالله فى الحالين هى وحدها الضمان .

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ
ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ
ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

٣٢٥

معانى الكلمات :

هزء : محل استهزاء .

عجل : استعجال .

آياتى : انتقامى .

يكفون : يمنعون .

بغتة : فجأة .

تبهتهم : تدهشهم .

يكلؤكم : يحرسكم .

يصحبون : ينصرون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على سخافة العقول الكافرة .

٢ ـ أن نقف على قدرة الله القاهرة .

٣ ـ أن نعلم أن طول العمر والرزق الواسع كثيراً ما يسبب الغرور لصاحبه .

المحتوى التربوى :

يرتد السياق إلى مثل ما بدأ به فى مطلع السورة عن استقبال المشركين للرسول ﷺ وما معه من الوحى ، واستهزائهم به وإصرارهم على الشرك ، ثم يتحدث عن طبيعة الإنسان العجول ، واستعجالهم بالعذاب ، فيحذرهم ما يستعجلون به وينذرهم عاقبة والاستهزاء بالرسول ﷺ ، ويعرض لهم مشهداً من تقلص ظلال الغالبين المسيطرين فى الدنيا .

وهؤلاء الكفار يكفرون بالرحمن ، خالق الكون ومدبره ليستنكرون على الرسول ﷺ أن يذكر آلهتهم الأصنام بالسوء ، بينما هم يكفرون بالرحمن دون أن يتحرجوا أو يتلوموا ، وهو أمر

عجيب جد عجيب ! وإنهم ليلقون رسول الله ﷺ بالهزء ، يستكثرون عليه أن ينال من أصنامهم تلك ، ولا يستكثرون على أنفسهم ـ وهم عبيد من عبيد الله ـ أن يكفروا به ، ويعرضوا عما أنزل لهم من قرآن ، وهى مفارقة عجيبة تكشف عن مدى الفساد الذى أصاب فطرتهم وتقديرهم للأمور.

ثم هم يستعجلون بما ينذرهم به الرسول ﷺ من عذاب ، ويحذرهم من عاقبته ، والإنسان بطبعه عجول ، فالعجلة فى طبعه وتكوينه ، وهو يمد ببصره دائما إلى ما وراء اللحظة الحاضرة يريد ليتناوله بيده ، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله ، ويريد أن يستحضر كل ما يوعد به ولو كان فى ذلك ضرره وإيذاؤه ، ذلك إلا أن يتصل بالله فيثبت ويطمئن ، ويكل الأمر لله فلا يتعجل قضاءه والإيمان ثقة وصبر واطمئنان .

وهؤلاء المشركون كانوا يستعجلون بالعذاب ، ويسألون متى هذا الوعد ، الوعد بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا ، فها هو ذا القرآن يرسم لهم مشهداً من عذاب الآخرة ، ويحذرهم ما أصاب المستهزئين قبلهم من عذاب الدنيا ، لو يعلمون ما سيكون لكان لهم شأن غير شأنهم ، ولكفوا عن استهزائهم واستعجالهم ، فلينظروا ماذا سيكون ، ها هم أولاء تنوشهم النار من كل جانب ، فيحاولون فى حركة مخبلة يرسمها التعبير من وراء السطور أن يكفوا النار عن وجوههم وعن ظهورهم ، ولكنهم لا يستطيعون ، وكأنما تلقفتهم النار من كل جانب فلا هم يستطيعون ردها ، ولاهم يؤخرون عنها ، ولاهم يمهلون إلى أجل قريب .

وهذه المباغتة جزاء الاستعجال ولقد كانوا يستعجلون العذاب أيضا فكان الرد هو هذه البغتة التى تذهل العقول ، وتشل الإرادة ، وتعجزهم عن التفكير والعمل ، وتحرمهم مهلة الإنكار والتأجيل ، وذلك عذاب الآخرة فأما عذاب الدنيا فقد حل بالمستهزئين قبلهم ، فإذا كانوا هم لم يقدر عليهم عذاب الاستئصال ، فعذاب القتل والأسر والغلب غير ممنوع ، وليحذروا الاستهزاء برسولهم ، وإلا فمصير المستهزئين بالرسل معروف ، جرت به السنة التى لا تتخلف وشهدت به مصارع المستهزئين .

أم إن لهم من يرعاهم بالليل والنهار غير الرحمن ، ويمنعهم من العذاب فى الدنيا أو الآخرة من دون الله ، فالله هو الحارس على كل نفس بالليل والنهار ، وصفته هى الرحمة الكبرى وليس من دونه راع ولا حام ، فاسألهم : هل لهم حارس سواه ؟

وهو سؤال للإنكار وللتوبيخ على غفلتهم عن ذكر الله ، وهو الذى يكلؤهم بالليل والنهار ، ولا راعى لهم سواه ، ومع هذا لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم ، بل يعرضون عن آياته

وآلائه ، ثم يعيد عليهم السؤال فى صورة أخرى فهل هناك آلهة تمنعهم وتكلؤهم من دوننا ؟ فتكون هى التى تحرسهم إذن وتحفظهم ؟ كلا فهؤلاء الآلهة التى استندوا إليها لا يستطيعون نصر أنفسهم ، فهم من باب أولى لا يستطيعون نصر سواهم ، وهؤلاء لا يصحبون من الله بخير ، فيستمدون القوة من صحبة القدرة لهم كما استمدها هارون وموسى من قبل .

إن هذه الآلهة مجردة من القوة بذاتها ، وليس لها مدد من الله تستمد منه القوة ، فهى عاجزة عاجزة .

وبعد هذا الجدل التهكمى الذى يكشف عن سخف ما يعتقده المشركون وخوائه من المنطق والدليل ، يضرب السياق عن مجادلتهم ويكشف عن علة لجاجتهم ، ثم يلمس وجدانهم لمسة تهز القلوب وهو يوجهها إلى تأمل يد القدرة ، وهى تطوى رقعة الأرض تحت أقدام الغالبين ، وتقص أطرافها فتردهم إلى حيزٍ منها منزوٍ صغير بعد السعة والمنعة والسلطان .

ثم يبين السياق أن الداعى إلى غيهم وعنادهم هو ما متعوا به فى الحياة الدنيا ، ونعموا به هم ومن قبلهم حتى طال عليهم الأمد ، لا تأتيهم واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب حتى حسبوا أنهم على شىء وأنهم لا يغلبون ، فهو المتاع الطويل الموروث الذى أفسد فطرتهم ، والمتاع ترف ، والترف يفسد القلب ويبلد الحس ، وينتهى إلى ضعف الحساسية بالله وانطماس البصيرة دون تأمل آياته ، وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ، ويصلها دائما بالله فلا تنساه .

ومن ثم يلمس السياق وجدانهم بعرض المشهد الذى يقع كل يوم فى جانب من جنبات الأرض حيث تطوى رقعة الدول المتغلبة وتنحسر وتتقلص ، فإذا هى دويلات صغيرة ، وكانت إمبراطوريات فإذا هى مغلوبة على أمرها وكانت غالبة ، وإذا هى قليلة العدد وكانت كثيرة ، قليلة الخيرات وكانت فائضة بالخيرات ، والتعبير يرسم يد القدرة وهى تطوى الرقعة وتنقص الأطراف وتزوى الأبعاد ، فإذا هو مشهد ساحر فيه الحركة اللطيفة وفيه الهبة المخيفة ، ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ فلا يجرى عليهم ما يجرى على الآخرين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أهل الباطل يتبعون ما لا ينفع ويستهزئون بالحق ، وعلى المسلم الصمود والثبات .

٢ ـ الله يمهل الظالمين حتى إذا أخذهم لم يفلتهم .

٣ ـ المتاع الزائد والترف المفرط يفسد القلب ، ويبلد الحس ويبعد عن سبيل الهداية .

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۖ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ
ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ
﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ
ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ۖ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
٣٢٦

معانى الكلمات :

أنذركم : أخوفكم .

نفحة : دفعة قليلة .

نضع : نقيم .

يخشون : يخافون .

مشفقون : خائفون .

منكرون : مكذبون .

عاكفون : مقيمون .

فطرهن : خلقهن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم ضعف الإنسان ، وأنه لا يتحمل العذاب .

٢ ـ أن نقف على صفات المتقين .

٣ ـ أن نتعرف على خطورة التقليد وأنه سبب لفساد كبير .

المحتوى التربوى :

يؤمر الرسول ﷺ أن يلقى كلمة الإنذار فى هذا السياق ؛ ليحذروا أن يكونوا هم الصم الذين لا يسمعون ، فتطوى رقعة الأرض تحت أقدامهم ، وتقص يد القدرة أطرافهم ، وتتحيفهم وما هم فيه من متاع .

ويتابع السياق إيقاعه المؤثر فى القلوب ، فيصورهم لأنفسهم حين يمسهم العذاب ؛ وإن أخف مسة من عذاب ربك تطلقهم يجأرون بالاعتراف ، ولكن حيث لا يجدى الاعتراف ، فلقد سبق فى سياق السورة مشهد القرى التى أخذها بأس الله ، فنادى أهلها أنهم كانوا ظالمين

لأنفسهم ، وإذن فهو الاعتراف بعد فوات الأوان ، ولخير منه أن يسمعوا تدبير الوحى ، وفى الوقت متسع قبل أن تمسهم نفحة من العذاب .

ويختم الشوط بالإيقاع الأخير من مشاهد يوم الحساب ، فيتم وضع الموازين العدل ليوم القيامة لتوزن بها صحائف الأعمال ، هذه الموازين لا تترك أصغر ما تراه العيون ، وأخفه فى الميزان يوم الحساب ولا تضيع ، والميزان الدقيق يشيل بها أو يميل .

فلتنظر نفس ما قدمت لغد ، وليصغ قلب إلى النذير ، وليبادر الغافلون المعرضون المستهزئون قبل أن يحق النذير فى الدنيا أو فى الآخرة ، فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا ، فهناك عذاب الآخرة الذى تعد موازينه ، فلا تظلم نفس شيئا ، ولا يهمل مثقال حبة من خردل ، وهكذا ترتبط موازين الآخرة الدقيقة بنواميس الكون الدقيقة بسنن الدعوات ، وطبائع الحياة والناس ، وتلتقى كلها متناسقة موحدة فى يد الإرادة الواحدة مما يشهد لقضية التوحيد ، وهى محور السورة الأصيل .

ويستعرض السياق أمة الرسل لا على وجه الحصر ، يشير إلى بعضهم مجرد إشارة ، ويفصل ذكر بعضهم تفصيلا مطولا ومختصرا ، وتتجلى فى هذه الإشارات والحلقات رحمة الله وعنايته برسله وعواقب المكذبين بالرسل بعد أن جاءتهم البينات ، كما تتجلى بعض الاختبارات للرسل بالخير وبالضر ، كيف اجتازوا الابتلاء ، وكذلك تتجلى سنة الله فى إرسال الرسل من البشر ووحدة العقيدة والطريق لجماعة الرسل على مدار الزمان ، حتى لكأنهم أمة واحدة على تباعد الزمان والمكان ، وتلك إحدى دلائل وحدانية الألوهية المبدعة ، ووحدانية الإرادة المدبرة ، ووحدانية الناموس الذى يربط سنن الله فى الكون ويؤلف بينها ، ويوجهها جميعا وجهة واحدة إلى معبود واحد .

ويكشف السياق للمشركين أن إرسال الرسل من البشر هى السنة المطردة ، ويذكر نماذج لها من قبل ، وأن إنزال الكتب على الرسل ليس بدعة مستغربة ، فها هما ذان موسى وهارون آتاهما الله كتابا ، ويسمى هذا الكتاب الفرقان ، وهى صفة القرآن ، فهناك وحدة حتى فى الاسم ، ذلك أن الكتب المنزلة كلها فرقان بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين منهج فى الحياة ومنهج، واتجاه فى الحياة واتجاه ، فهى فى عمومها فرقان ، وفى هذه الصفة تلتقى التوراة والقرآن .

وجعل التوراة ضياء يكشف ظلمات القلب والعقيدة ، وظلمات الضلال والباطل ، وجعل التوراة كالقرآن فهى تذكر المتقين بالله ، وتبقى لهم ذكرا فى الناس ، ويخص المتقين الذين تستشعر قلوبهم خشية الله ، ولم يروه ويخافون ساعة فيعملون لها ويستعدون هؤلاء ، هم الذين ينتفعون بالضياء ، ويسيرون على هداه ، فيكون كتاب الله لهم ذكراً يذكرهم بالله ، ويرفع لهم ذكرا فى

الناس ، وذلك شأن موسى وهارون والقرآن ذكر مبارك أنزله الله فليس بدعا ولا عجبا ، إنما هو أمر مسبوق وسنة معروفة ، فلماذا تنكرون منه ، وقد سبقت به الرسالات ؟

وبعد الإشارة السريعة إلى موسى وهارون وكتابهما يرتد السياق إلى حلقة كاملة من قصة إبراهيم ، وتبدأ بالإشارة إلى سبق هداية إبراهيم إلى الرشد ، ويعنى به الهداية إلى التوحيد ، فهذا هو الرشد الأكبر الذى تنصرف إليه لفظة الرشد فى هذا المقام ، وكان الله عالما بحاله وباستعداده لحمل الأمانة التى يحملها المرسلون ، وكانت قولته لأبيه وقومه دليل رشده ، فقد استنكر أن يعكفوا على حجارة وخشب بالعبادة ، وكلمة عاكفون تفيد الانكباب الدائم المستمر ، وهم لا يقضون وقتهم كله فى عبادتها ، ولكنهم يتعلقون بها .

وكان جوابهم وحجتهم تدل على التحجر العقلى والنفسى داخل قوالب التقليد الميتة فى مقابل حرية الإيمان ، وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها ، فالقيم تنبع من التقويم المتحرر الطليق ، وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة فى التقدير والصراحة فى الحكم ، راحوا يسألونه : ما جئت به حق أم أنت تلعب بنا ؟

أما إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه ، متمثل له فى خاطره وفكره ، يقولها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه ؛ فهو رب واحد ، رب الناس ورب السموات والأرض ، وربوبيته ناشئة عن كونه الخالق فهما صفتان لا تنفكان ، إنه واثق وثوق الذى يشهد على واقع لا شك فيه ، وإبراهيم عليه السلام لم يشهد خلق السموات والأرض ولم يشهد خلق نفسه ولا قومه ، ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد أن يشهد المؤمنون عليه واثقين ، إن كل ما فى الكون لينطق بوحدة الخالق المدبر وإن كل ما فى كيان الإنسان ليهتف به إلى الإقرار بوحدانية الخالق المدبر ، وبوحدة الناموس الذى يدبر الكون ويصرفه .

ثم يعلن إبراهيم لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار ، أنه قد اعتزم فى شأن آلهتهم أمراً لا رجعة فيه ، ويترك ما اعتزمه من الكيد للأصنام مبهمًا لا يفصح عنه ، ولا يذكر السياق كيف ردوا عليه ، ولعلهم كانوا مطمئنين إلى أنه لن يستطيع لآلهتهم كيداً فتركوه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حب الشىء يعمى ويصم صاحبه فلا يرى إلا ما أحب ولا يسمع إلا ما أهوى ، فليحذر المسلم أن يكون حبه على ضلال .

٢ ـ الرسل رسالتهم واحدة ، والمؤمنون أصحاب طريق واحدة .

٣ ـ الإيجابية صفة المصلحين والعاقل من يرى مواطن الخلل ويحاول علاجها .

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

٣٢٧

معانى الكلمات :

جذاذاً : قطعا .

يذكرهم : يعيبهم .

فأتوا : أحضروا .

على أعين الناس : أمامهم .

نكسوا : رجعوا .

أف : كلمة غضب .

نافلة : زيادة عما سأل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التغيير له مراتب أولها التغيير الفعلى الذى يعتمد على الإصلاح .

٢ ـ أن نقف على قوة حجة إبراهيم عليه السلام .

٣ ـ أن نتعلم أن باب الفرج قوة اليقين .

المحتوى التربوى :

يبين السياق أن إبراهيم عليه السلام حطم الآلهة المعبودة وحولها إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة إلا كبير الأصنام ، فقد تركه إبراهيم لعلهم إذا رجعوا إليه يسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر ، فلم يدفع عن صغار الآلهة ، ولعلهم حينئذ يراجعون القضية كلها فيرجعون إلى صوابهم ، ويدركون منه ما فى عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت .

وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذا إلا ذلك الكبير ، ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ولا إلى أنفسهم يسألونها إن كانت هذه آلهة ، فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئا ، وهذا كبيرها لم يدفع عنها ؟ ولكنهم لم يسألوا أنفسهم لأن التقليد قد غل أفكارهم عن التأمل والتدبر ، فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعى لينقموا على من حطم آلهتهم ، وصنع بها هذا الصنيع .

obeikandi.com

عندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها وكان فتى حديث السن فى ذلك الحين وقد قصدوا إلى التشهير به وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد فهم ما يزالون يصرون على أنها آلهة وهى جذاذ مهشمة فأما إبراهيم فهو يتهكم بهم ويسخر منهم وهو فرد وحده وهم كثير ؛ ذلك أنه ينظر بعقله المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك إلا أن يهزأ بهم ويسخر وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلى الدون : فهذه التماثيل المحطمة لا تدرى من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذى لا يملك مثلها حراكا فهى جماد لا إدراك له أصلا واسألوهم إن كان ينطقون .

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزا وردهم إلى شىء من التدبر والتفكر وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما فى موقفهم من سخف وما فى عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذى يأخذون به أنفسهم ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ، وإلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود ونكسوا على رؤوسهم، وكان قولهم الأخير حجة عليهم ، وأى حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون ؟ !

ومن ثم يجبههم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم ؛ لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم فكيف يعبدون ما لا ينفعهم ولا يضرهم لما يعبدونها أفلا يتدبرون ما هم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر ؟ !

عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائما حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل فيلجؤون إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ وقالوا : لتنصروا الآلهة التى تعبدون فأحرقوه، ولكن كلمة أخرى قد قيلت فأبطلت كل قول وأحبطت كل كيد ذلك أنها الكلمة العليا التى لا ترد فكانت النار التى أشعلوها بردا وسلاما على إبراهيم فكانوا هم المغلوبين الأسفلين ؛ لأنهم أرادوا بنبى الله كيدا فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك .

وهكذا عندما يقف الباطل حاسرا أمام حجة الحق يلتفت يمنة ويسرة فلا يمسك إلا بجبروته الخائر وقوة شيطانه الضعيف لا ليقارع الحجة بالحجة والبيان بالبيان بل ليكمم الأفواه التى انطلقت من ألسنتها قذائف الحق ويقضى على جسم احتوى بين جنباته روحا ترفرف فى ساحة الصدق وما كان لأهل الباطل أن تضيق صدورهم وتغتاظ نفوسهم وتأخذهم عزتهم بالإثم إلا لأنهم يفتقدون حجتهم المدحضة بقذيفة الحق الدامغة .

وأهل الحق رجال استخلصهم الله لنفسه فسرى الحق واختلط بدمائهم وهوائهم فارتقت نفوسهم على شوائب الدنيا وسخافة الأهواء فنطقوا بلسان الحق وهم يعلمون ضجة الألسنة التى أمسكت بسيوف ظنت أنها تخيف نطقوا بلسان اتصلت كلمته بكلمة الله القاهر القادر وما كان لله أن يدع لكلمة اتصلت بكلمته ولا صاحبها أن تستذل أو تهان أو تمس بأقل سوء .

وقوله تعالى ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ **يعلق عليه الشيخ أبو زهرة قائلا** : « ومساق الكلام لا يدل على أنها أطفئت بريح شديدة ، ولا مطر انهمر عليها ، ولكنها المعجزة أنها بقيت متوهجة ولم تحرقه، فالله تعالى أزال عنها خاصة الحرق بالنسبة لإبراهيم، ومنعت من أن يصل أذاها إليه، كأن بجسمه موانع ما نعة وحائلا يحول بينه وبينها .

نجا إبراهيم عليه السلام بهذه الكعجزة الباهرة ، وكان فيها معنى التحدى ؛ للأنهم أرادوا الغلب والانتصار لآلهتهم فلم يؤذ ولا ها بها ، وكان ذلك إعجازًا ، وكان حقا عليهم من قبل ومن بعد أن يذعنوا ، ولكن غلبت عليهم شقوتهم » .

وكانت نجاة الله لإبراهيم عليه السلام من الكيد الذى أريد به ، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة وخروجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام ، وكان معه ابن أخيه لوط عليه السلام فكانت مهبط الوحى فترة طويلة ، ومبعث الرسل من نسل إبراهيم ، وفيها الأرض المقدسة ، وأولى القبلتين وثانى الحرمين ، وفيها بركة الخصب والرزق ، إلى جانب بركة الوحى والنبوة جيلا بعد جيل .

لقد ترك إبراهيم عليه السلام وطنا وأهلا وقومًا ، فعوضه الله الأرض المباركة وطنا خيراً من وطنه ، وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلاً خيراً من أهله ، وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوما خيراً من قومه .

وهكذا تأتى السعة من حيث يتيقن الضيق ، وكثيًرا ما يغفل الغافلون فيقيسون أمورهم بمقاييس حياتهم ، فيسيرون فى الحياة بالحياة فإذا بها تنكسهم على رؤوسهم وتقلبهم على ظهورهم ، وتجبههم على وجوههم ، يتخبطون خبط عشواء فأمسوا إرادة من إرادات الحياة الخاسرة ، وما كانت الحياة لتترك يوما غفلا من إرادة الله القاهر فوق عباده ، فكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون القاصمة القاضية ، وإن هى إلا لفتة صغيرة فإذا هى تحيى ولا تميت ، وتنعش ولا تخمد ، وتعود بالخير وهى الشر المستطير ، ولكن أنى يعلم هذا من كان فى إيمانه قصور، وفى قلبه ضعف ، ومن كان صغير النفس، أصم الأذن عمى العين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا:

١ ـ تغيير المنكر باليد مقدم على تغييره باللسان والجمع بينهما أفضل .

٢ ـ العاقبة تلحق الحق وأتباعه وعلينا أن نستمسك به .

٣ ـ قوة التوكل على الله تفرج الكربات وتيسر الأمور .

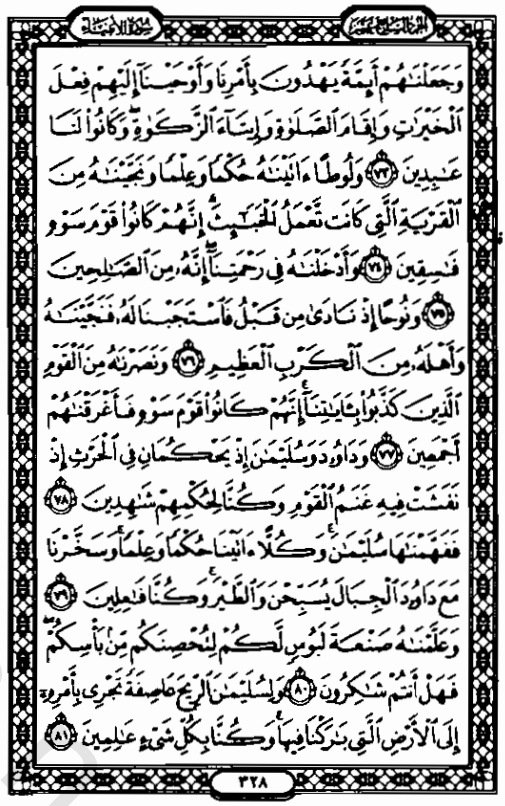
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ
ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ
فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ۖ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ
فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾
٣٢٨

معانى الكلمات :

حكما : نبوة .

الخبائث : الأعمال القبيحة .

فى رحمتنا : فى الجنة .

الكرب العظيم : الطوفان .

نفشت : انتشرت .

سخرنا : ذللنا .

لبوس : دروع .

لتحصنكم : لتحميكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل الدعوة إلى الله تعالى وشرف القائمين بها .

٢ ـ أن نعلم أن الخبث إذا كثر فى الأمة استوجبت الهلاك والدمار .

٣ ـ أن نتعرف على بعض نعم الله على أنبيائه وخلقه .

المحتوى التربوى :

يبين السياق أن الله جعل من نسل إبراهيم عليه السلام أئمة يهدون الناس بأمر الله ، وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة طائعين لله عابدين ، فنعم العوض ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التى قسمها الله لإبراهيم لقد ابتلاه بالضراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل .

وتأتى قصة لوط مشارا إليها مجرد إشارة ، وقد صحب عمه إبراهيم من العراق إلى الشام ، وأقام فى قرية سدوم ، وكانت تعمل الخبائث ، وهى إتيان الفاحشة مع الذكور جهرة وبلا حياء

أو تحرج ، فأهلك الله القرية وأهلها ، فقد كانوا أهل فساد وشر ، وأنجى لوطا وأهله إلا امرأته ، وأدخله فى رحمته وكأنها الرحمة مأوى وملاذ يدخل الله فيه من يشاء ، فإذا هو آمن ناعم مرحوم .

ويشير إلى نوح إشارة سريعة لا تفصيل فيها ، وهى إشارة لإثبات استجابة الله لنوح عليه السلام حين ناداه من قبل ، وهو سابق لإبراهيم ولوط ، ولقد أنجاه الله وأهله كذلك إلا امرأته ، وأهلك قومه بالطوفان وهو الكرب العظيم .

ثم يفصل بعض الشىء فى قصة داود وسليمان ، ويذكر قصة الحرث التى حكم فيها داود وسليمان ، تقول الرواية فى تفصيلها : إن رجلين دخلا على داود ، أحدهما صاحب حرث أى حقل ، وقيل : حديقة كرم ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن غنم هذا قد نفشت فى حرثى ـ أى انطلقت فيه ليلا ـ فلم تبق منه شيئا ، فحكم داود لصاحب الحرث أن يأخذ غنم خصمه فى مقابل حرثه ، ومر صاحب الغنم بسليمان ، فأخبره بقضاء داود فدخل سليمان على أبيه فقال : يا نبى الله ، إن القضاء غير ما قضيت فقال : كيف ؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بها ، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ، ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده، فيأخذ صاحب الحرث حرثه ، وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت وأمضى حكم سليمان .

وكان حكم داود وسليمان فى القضية اجتهادا منهما ، وكان الله حاضراً حكمهما ، فألهم سليمان حكما أحكم ، وفهمه ذلك الوجه وهو أصوب ، ولقد اتجه داود فى حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث وهذا عدل فحسب، ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير ، ولقد أوتى داود وسليمان كلاهما الحكمة والعلم .

قال القاسمى : « استدل بالآية على أن خطأ المجتهد مغفور له » .

ثم يعرض السياق ما اختص به كلاً منهما ، فيبدأ بالوالد ، وقد عرف داود عليه السلام بمزاميره ، وهى تسابيح لله كان يرتلها بصوته الحنون ، فتتجاوب أصداؤها حوله ، وترجع معه الجبال والطير .

وحينما يتصل قلب عبد بربه فإنه يحس الاتصال بالوجود كله ، وينبض قلب الوجود معه ، وتنزاح العوائق والحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق والفواصل التى تميز الأنواع والأجناس ، وتقيم بينها الحدود والحواجز ، وعندئذ تتلاقى ضمائرها وحقائقها فى ضمير الكون وحقيقته ، وفى لحظات الإشراق تحس الروح باندماجها فى الكل، واحتوائها على الكل ، فكل ما حولها مندمج فيها وهى مندمجة فيه .

ومن النص القرآنى نتصور داود وهو يرتل مزاميره ، فيسهو عن نفسه المنفصلة المتميزة المتحيزة ، وتهيم روحه فى ظلال الله فى هذا الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء ، فيحس ترجيعها ، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه ، وإذا الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة بجلال الله وحمده ، وما يفقهه إلا من يتجرد من الحواجز والفواصل، وينطلق مع أرواح الكائنات ، المتجهة كلها إلى الله ، فما هنالك شىء يعز على القدرة أو يتأبى حين تريد ، يستوى أن يكون مألوفاً للناس أو غير مألوف .

والله يمن على الناس أن علم داود صناعة الدروع حلقا متداخلة ، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة ، والزرد المتداخل أيسر استعمالا وأكثر مرونة ، ويبدو أن داود هو الذى ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله لوقايتهم فى الحرب ، وهو يسألهم سؤال توجيه وتخصيص هل يشكرون ؟

ذلك شأن داود ، فأما شأن سليمان فهو أعظم ، والنص القرآنى هنا يقرر تسخير الريح وهى عاصفة لسليمان ، تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ، وهى فى الغالب الشام لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة فى قصة إبراهيم فكيف كان هذا التسخير ؟

الأسلم أن تفسير تسخير الريح بتوجيهها بأمر الله إلى الأرض المباركة فى دورة تستغرق شهراً طرداً وعكسا ... كيف ؟ سؤال لا يجب أن يرد فالقدرة الإلهية الطليقة لا تسأل كيف ؟ وكلمة ﴿ وَكُنَّا ﴾ هى الكلمة الواحدة التى تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول مألوفا للبشر أو غير مألوف ، والمعلوم للبشر من نواميس الوجود قليل ، ولا يمتنع أن تكون هناك نواميس أخرى خفية على البشر تعمل ، وتظهر آثارها عندما يؤذن لها بالظهور ، فالمسيطر على الوجود كله صاحب قدرة طليقة لا تخضع لحدود أو مقاييس .

وما يرد من قصة بساط الريح الذى قيل : إن سليمان كان يجلس عليه هو وحاشيته فيطير بهم إلى الشام فى فترة وجيزة ، وهى مسافة كانت تقطع فى شهر على الجمال ثم يعود كذلك ، ولكن القرآن لم يذكر شيئا عن بساط الريح ذاك ، ولم يرد ذكره كذلك فى أى أثر مستيقن وأولى بنا أن نعيش فى ظل النص القرآنى ولا نتعداه إلا إلى أثر قد ثبت .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ثناء الله تعالى على الدعاة إلى الله فيه حث للمسلم أن يكون فى صفوفهم .

٢ ـ البعد عن المعاصى ، فالشر إذا استفحل أنذر بالعذاب .

٣ ـ إذا أخطأ المجتهد فهو مغفور له ، مأجور على اجتهاده .

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ
وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ
﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ
﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ
مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ
﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا
لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾

معانى الكلمات :

حافظين : راعين مراقبين .

نادى : دعا .

مسنى الضر : أصابنى المرض .

مغاضبا : غضبان .

نقدر : نضيق .

تذرنى : تتركنى .

رغباً ورهبا : رجاء فى الثواب وخوفا من العقاب .

خاشعين : خاضعين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على مقامى الصبر والشكر وعاقبتهما .

٢ ـ أن نتعلم من سير الصالحين المواعظ والعبر .

٣ ـ أن نعلم أن الأعمال الصالحة سبيل النجاة فى الدنيا والآخرة .

المحتوى التربوى :

ويتابع السياق ذكر ما أنعم الله تعالى على سليمان عليه السلام من تسخير الجن له ليغوصوا فى أعماق البحر أو أعماق اليابسة ، ويستخرجوا كنوزها المخبوءه لسليمان ، أو ليعملوا له أعمالا غير هذا وذاك ، فالجن كل ما خفى ، وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقًا يسمون الجن خافين علينا ، فمن هؤلاء سخر الله لسليمان من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك ، وحفظهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده ، وهو القاهر فوق عباده يسخرهم حين يشاء كيف يشاء .

وتجىء إلى الابتلاء بالضراء فى قصة أيوب عليه السلام ، وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء ، والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل ، وهى فى هذا الموضوع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء ؛ لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه ، ورعايته لهم فى الابتلاء .

obeikandl.com

وأيوب فى دعائه لا يزيد على وصف حاله أنه مسه الضر ، ووصف ربه بصفته فهو أرحم الراحمين ، ثم لا يدعو بتغيير حاله صبراً على بلائه ، ولا يقترح شيئا على ربه تأدبا معه وتوقيراً ، فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء ، ولا يتململ من الضر الذى تضرب به الأمثال فى جميع الأعصار ، بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه ، اطمئنانا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال .

وفى اللحظة التى توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة ، وكانت الرحمة وكانت نهاية الابتلاء ؛ فإذا هو معافى صحيح ، وعوضه عمن فقد من أهله ورزقه مثلهم ، وكل نعمة فهى رحمة من عند الله ومنة ، وذكرى تذكرهم بالله وبلائه .

يقول صاحب الظلال : « والإشارة للعابدين بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها ، فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء ، وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان ، والأمر جد لا لعب ، والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها ، المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها الشفاه ، ولا دعوى يدعيها من يشاء ، ولابد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء » .

بعد ذلك يشير السياق مجرد إشارة إلى إسماعيل وإدريس وذى الكفل ، ويشير إلى عنصر الصبر فى قصص هؤلاء الرسل ، ولنعلم أنهم كانوا من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر الذى يستحق التسجيل فى كتاب الله الباقى ، والنص القرآنى يكفى فى هذا الموضع لتسجيل صفة الصبر لهم وأن الله تعالى أدخلهم فى رحمته لصلاحهم .

ثم تجىء قصة يونس عليه السلام وهو ذو النون ، وسمى ذا النون لأن الحوت التقمه ثم نبذه ، وقصة ذلك أنه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه ، فضاق بهم صدراً وغادرهم مغاضبا لهم ، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم ، ظانا أن الله لن يضيق عليه الأرض فهى فسيحة والقرى كثيرة والأقوام متعددون ، وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة فسيوجهه إلى قوم آخرين ، وقاده غضبه الجامح إلى شاطئ البحر ، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها ، حتى إذا كانت فى اللجة ثقلت ، وكان لابد من إلقاء أحد ركابها فى البحر ، فساهموا فجاء السهم على يونس ، فألقوه أو ألقى هو بنفسه فالتقمه الحوت ، فلما كان فى الظلمات ظلمة الليل والبحر وجوف الحوت نادى ربه ودعاه ، فنجاه الله من الغم ، ولفظه الحوت على الساحل .

يقول صاحب الظلال : « أصحاب الدعوات لابد أن يتحملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها ، وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقا .

ولكن بعض تكاليف الرسالة ، فلابد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولابد أن يثابروا ويثبتوا ، ولابد أن يكرروا الدعوة ويبدؤوا فيها ويعيدوا ، إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود ،

فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة ، وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف .

إن طريق الدعوات ليس هينا لينا ، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة ، ومن السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس ، إنه عمل مريح ، قد يفثأ الغضب ، ويهدئ الأعصاب ، ولكن أين هى الدعوة وما الذى عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟ ! إن الدعوة هى الأصل لا شخص الداعية ، فليضق صدره ، ولكن ليكظم ويمض ، وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون ، إن الداعية أداة فى يد القدرة والله أرعى لدعوته وأحفظ ، فليؤد هو واجبه فى كل ظرف ، وفى كل جو والبقية على الله ، والهدى هدى الله ، وإن فى قصة ذى النون لدرسا لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتأملوه ، وفى رجوعه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتدبروها ، وفى رحمة الله له واستجابة دعائه المنيب فى الظلمات لبشرى للمؤمنين .

ثم أشار إلى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام،واستجابة الله لزكريا عندما دعاه أن يهب الولد، ولا ينسى زكريا عليه السلام أن الله هو وارث العقيدة ووارث المال ، فهو يريد من ذريته من يحسن الخلافة بعده فى أهله ودينه وماله ، وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة ، وكانت هبة الله مع كون الزوج عقيما لا تصلح للنسل ، وسارع الله فى استجابة الدعاء لأنهم كانوا بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتدبروها ، وفى رحمة الله له واستجابة دعائه المنيب فى الظلمات لبشرى للمؤمنين » .

ثم أشار إلى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام، واستجابة الله لزكريا عندما دعاه أن يهبه الولد ، ولا ينسى زكريا عليه السلام أن الله هو وارث العقيدة ووارث المال ، فهو يريد من ذريته من يحسن الخلافة بعده فى أهله ودينه وماله ، وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة ، وكانت هبة الله مع كون الزوج عقيما لا تصلح للنسل ، وسارع الله فى استجابة الدعاء لأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعون رغبة فى الرضوان ورهبة للغضب ولم يكونوا متكبرين ولا متجبرين بل خاشعين ، فكانت أسرة مباركة تستحق رحمة الله ورضاه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من أسباب الفرج دعاؤه تعالى والابتهال إليه والتضرع له .

٢ ـ أصحاب الدعوات لابد أن يتحملوا تكاليفها وأن يصبروا عليها .

٣ ـ الدعوة هى الأصل لا شخص الداعية .

٤ ـ قوة الصلة مع الله قوة لصاحبها .

obeikandi.com

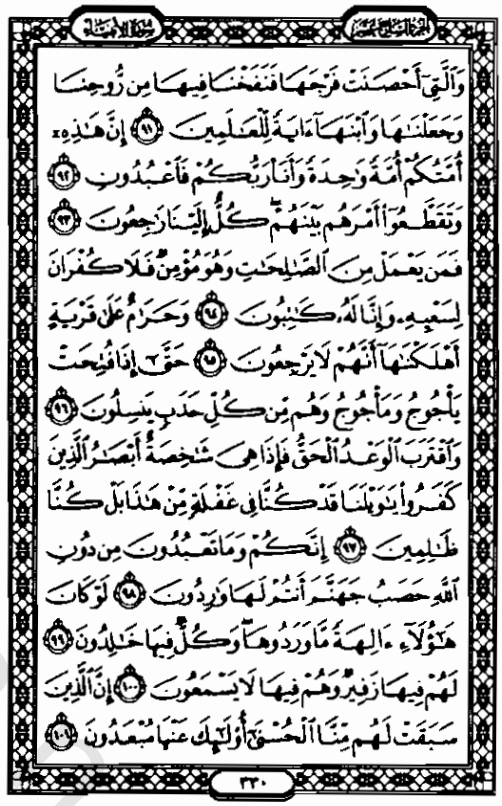
وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ
أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾
وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾
فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ
لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ
أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ
يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾
٣٣٠

معانى الكلمات :

أحصنت فرجها : صانت عرضها .

تقطعوا أمرهم : تفرقوا فى دينهم .

حرام : ممتنع .

حدب : مرتفع .

ينسلون : يأتون مسرعين .

شاخصة : مرتفعة لا تطرف .

ويلنا : هلاكنا .

حصب جهنم : وقودها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن أمتنا أمة واحدة يجب الحفاظ على وحدتها .

٢ ـ أن نعلم أن ما حدث للبشرية هو من تمزيق الدين بينها بحسب الأهواء والأطماع والأغراض .

٣ ـ أن نعلم وعد الله لأهل الإيمان والعمل الصالح بالجزاء الحسن وهو الجنة .

المحتوى التربوى :

يختم السياق بذكر مريم بمناسبة ذكر ابنها عيسى عليه السلام ، ولا يذكر هنا اسم مريم ؛ لأن المقصود فى سلسلة الأنبياء هو ابنها عليه السلام ، وقد جاءت هى تبعا له فى السياق ، إنما يذكر صفتها المتعلِّقة بولدها وقد أحصنت فرجها فصانته من كل مباشرة ، والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية ؛ لأن الزواج يحصن من الوقوع فى الفاحشة ، أما هنا فيذكر فى معناه الأصيل وهو الحفظ والصون أصلا من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية ، وذلك تنزيها لمريم عن كل ما رماها به

اليهود مع يوسف النجار الذى كان معها فى خدمة الهيكل والذى تقول عنه الأناجيل المتداولة : إنه كان قد تزوجها ولكنه لم يدخل بها ولم يقربها .

وما حدث آية غير مسبوقة ولا ملحوقة ، آية فذة واحدة فى تاريخ البشرية جميعا تكفى لتتأملها البشرية فى أجيالها جميعا، وتدرك يد القدرة الطليقة التى تخلق النواميس ، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس .

وفى نهاية الاستعراض الذى شمل نماذج من الرسل ونماذج من الابتلاء ونماذج من رحمة الله ، ويعقب بالغرض الشامل من هذا الاستعراض ، وهو أن أمتكم ، أمة الأنبياء ، أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة ، وتنهج نهجا واحدا هو الاتجاه إلى الله دون سواه ، أمة واحدة فى الأرض ، ورب واحد فى السماء لا إله غيره ولا معبود بحق إلا إياه ، أمة واحدة وفق سنة واحدة تشهد بالإرادة الواحدة فى الأرض والسماء .

ومع وحدة أمة الرسل ، ووحدة القاعدة التى تقوم عليها الرسالات ، فقد تقطع أتباعه أمرهم بينهم ، كلما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها ، وثار بينهم الجدل وكثر بينهم الخلاف ، وهاجت بينهم العداوة والبغضاء ، وقع ذلك بين أتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضا باسم العقيدة والعقيدة واحدة ، وأمة الرسل كلها واحدة .

لقد تقطعوا أمرهم بينهم فى الدنيا ، ولكنهم جميعا سيرجعون إلى الله فى الآخرة ، وهو الذى يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى أو ضلال ، ولا جحود ولا كفران للعمل الصالح متى قام على قاعدة الإيمان ، وهو مكتوب عند الله لا يضيع منه شئ ولا يغيب ، وهذا هو قانون العمل والجزاء،ولابد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته بل ليثبت للعمل الصالح وجوده ، ولابد من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته بل لتثبت للإيمان حقيقته ، فالإيمان هو قاعدة الحياة ؛ لأنه الصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود ، والرابطة التى تشد الوجود بما فيه ومن فيه إلى خالقه الواحد ، ولابد من القاعدة ليقوم البناء ، والعمل الصالح هو هذا البناء .

يقول صاحب الظلال : « يقرن القرآن دائما بين الإيمان والعمل الصالح كلما ذكر العمل والجزاء فلا جزاء على إيمان عاطل خامد لا يعمل ولا يثمر ، ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان ، والعمل الطيب الذى لايصدر عن إيمان إنما هو مصادفة عابرة ؛ لأنه غير مرتبط بمنهج مرسوم » .

والجزاء على العمل يتم فى الآخرة حتى ولو قدم منه قسط فى الدنيا ، فالقرى التى هلكت بعذاب الاستئصال ستعود كذلك حتما لتنال جزاءها الأخير ، وعدم عودتها ممتنعة فهى راجعة

بكل تأكيد ، ويفرد السياق هذه القرى بالذكر بعد أن قال : إن الكل سيرجع إلى الله ؛ لأنه قد يخطر للذهن أن هلاكها فى الدنيا كان نهاية أمرها ، ونهاية حسابها وجزائها ، فهو يؤكد رجعتها إلى الله ، وينفى عدم الرجعة نفيا قاطعا فى صورة التحريم لوقوعه .

ثم يعرض السياق مشهداً من مشاهد القيامة يبدؤه بالعلامة التى تدل على قرب الموعد وهو فتح يأجوج ومأجوج ، والمقصود هنا وصف ذلك اليوم حين يجىء ، والتقديم له بصورة مصغرة من مشاهد الأرض ، هى تدفق يأجوج ومأجوج ، هى تدفق يأجوج ومأجوج من كل حدب فى سرعة واضطراب على طريقة القرآن الكريم فى الاستعانة بمشاهدات البشر والترقى بهم من تصوراتهم الأرضية إلى المشاهد الأخروية .

وفى المشهد المعروض هنا يبرز عنصر المفاجأة التى تبهت المفجوئين ، فالذين كفروا لا تطرف من الهول أبصارهم الذى فوجئوا به ، ويقدم فى التعبير كلمة شاخصة لترسم المشهد وتبرزه ، ثم يميل السياق ، عن حكاية حالهم إلى إبرازهم يتكلمون ، وبذلك يحيى المشهد ويستحضره ، فيفجع المفجوء ، الذى تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ؛ فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ولكن بعد فوات الأوان .

وحين يصدر هذا الاعتراف فى ذهول المفاجأة يصدر الحكم القاطع الذى لا مرد له ، وكأنما هم اللحظة فى ساحة العرض ، يردون جهنم هم وآلهتهم المدعاة ، وكأنما هم يقذفون فيها قذفا بلا رفق ولا أناة ، وكأنما تحصب بهم حصبا كما تحصب بالنواة ، وعندئذ يوجه إليهم البرهان على كذب ما يدعون لها من كونها آلهة يوجه إليهم البرهان من هذا الواقع المشهود .

هذا البرهان برهان وجدانى ينتزع من هذا المشهد المعروض عليهم فى الدنيا ، وكأنما هو واقع فى الآخرة ، ثم يستمر السياق على أنهم قد وردوا جهنم فعلا ، فيصف مقامهم فيها ، ويصور حالهم هناك وهى حال المكروب المذهوب بإدراكه من هول ما هو فيه ، فلهم زفير تنقطع منه الضلوع ، ولا يسمعون من الهول وشدة العذاب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ على المسلم الحفاظ وسيلة على وحدة الصف المسلم .

٢ ـ لابد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته ، ولابد من العمل الصالح حتى يكون للإيمان ثمرته .

٣ ـ الجزاء على العمل يتم فى الآخرة حتى ولو قدم منه جزء فى الدنيا .

لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم
خالدون ﴿١٠٢﴾ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم
الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون
﴿١٠٣﴾ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما
بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين
﴿١٠٤﴾ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض
يرثها عبادي الصالحون ﴿١٠٥﴾ إن في هذا لبلاغا
لقوم عابدين ﴿١٠٦﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين
﴿١٠٧﴾ قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد
فهل أنتم مسلمون ﴿١٠٨﴾ فإن تولوا فقل آذنتكم
على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴿١٠٩﴾
إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون
﴿١١٠﴾ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴿١١١﴾ قال
رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴿١١٢﴾

سورة الحج

معانى الكلمات :

حسيسها : صوت لهيبها .

تتلقاهم : تستقبلهم .

السجل : الصحيفة .

الزبور : من الكتب المنزلة .

الذكر : اللوح المحفوظ .

بلاغا : كفاية .

آذنتكم : أعلمتكم .

فتنة : امتحان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن وراثة الأرض لعباد الله الصالحين .

٢ ـ أن نقف على حكمة إرسال الرسول ﷺ .

٣ ـ أن نتعلم كيفية المفاصلة بين أهل الشرك وأهل التوحيد .

المحتوى التربوى :

يدع السياق حال الكافرين لنجد المؤمنين فى نجوة من هذا كله قد سبقت لهم الحسنى من الله ، وقدر لهم الفوز والنجاة من سماع صوت النار وهى تسرى وتحرق فضلا على معاناته ، نجوا من الفزع الأكبر الذى يذهل المشركين ، وعاشوا فيما تشتهى أنفسهم من أمن ونعيم ، وتتولى الملائكة استقبالهم بالترحيب ، ومصاحبتهم لتطمئن قلوبهم فى جو الفزع المرهوب .

ويختم المشهد بمنظر الكون الذى آل إليه، وهو يشارك فى تصوير الهول الآخذ بزمام القلوب ، وبزمام الكائنات كلها فى ذلك اليوم العصيب ، فإذا السماء مطوية كما يطوى خازن الصحائف

صحائفه ، وقد قضى الأمر وانتهى العرض ، وطوى الكون الذى كان يألفه الإنسان ، وإذا عالم جديد وكون جديد ، يوم يعيد الله الخلائق خلقا جديداً كما بدأهم وهو القادر على ذلك .

ومن هذا المشهد المصور لنهاية الكون والأحياء فى الآخرة يعود السياق لبيان سنة الله فى وراثة الأرض ، وصيرورتها للصالحين من عباده فى الحياة الذين جمعوا بين الإيمان والأعمال الصالحة حتى ولو تملكها إلى حين بعض الطغاة والظالمون .

يقول صاحب الظلال : « لقد استخلف الله آدم فى الأرض لعمارتها وإصلاحها وتنميتها وتحويرها ، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها ، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها فى علم الله ، ولقد وضع الله للبشر منهجا كاملا للعمل على وفقه فى هذه الأرض ، منهجا يقوم على الإيمان والعمل الصالح ، فى هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها هو وحده المقصود ، ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان ؛ ليبلغ للإنسان كماله المقدر له فى هذه الحياة .

وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة ، وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة ، وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلال ماديا ، ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق ، والوراثة الأخيرة هى للعباد الصالحين الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح ، فلا يفترق فى كيانهم هذان العنصران ولا فى حياتهم ، وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل فى أمة فهى الوارثة للأرض فى أية فترة من فترات التاريخ » .

وتختم السورة بأن فى هذا القرآن وما يكشفه من سنن فى الكون والحياة ، ومن مصائر الناس فى الدنيا والآخرة ، ومن قواعد العمل والجزاء .. إن فى هذا لبلاغا وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله ، ويسميهم عابدين ؛ لأن العابد خاشع القلب طائع متهيئ للتلقى والتدبر والانتفاع .

ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى ، وما يهتدى إلا أولئك المتهيئون المستعدون ، وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين وغير المؤمنين ، ولقد جاءت هذه الرسالات للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلى ، جاءت كتابا مفتوحا للعقول فى مقبل الأجيال شاملا لأصول الحياة البشرية التى لا تتبدل ، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة التى يعلمها خالق البشر ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

ولقد وضح هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة ، وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق ، لا يعذب الجسد ليسمو بالروح ، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد ، ولا يقيد

طاقات الفرد ، ورغائبه الفطرية السليمة ليحقق مصلحة الجماعة أو الدولة ولا يطلق للفرد نزواته وشهواته الطاغية المنحرفة لتؤذى حياة الجماعة أو تسخرها لإمتاع فرد أو أفراد .

ولقد كانت رسالة محمد ﷺ رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده ، فقد جاء الإسلام لينادى بإنسانية واحدة ، وسوى بين جميع الناس أمام القضاء والقانون ، وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية ، وأن محمداً ﷺ إنما أرسل رحمة للعالمين من آمن به، ومن لم يؤمن به، على السواء ، فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذى جاء به طائعة أو كارهة، شاعرة أو غير شاعرة ، وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة لمن يريد أن يستظل بها ، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية فى هجير الأرض المحرق وبخاصة فى هذه الأيام .

وبعد إبراز معنى الرحمة يؤمر الرسول ﷺ بأن يواجه المكذبين المستهزئين بخلاصة رسالته ، وهو التوحيد المطلق الذى ينقذ البشرية ويكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس فلا تنحنى الرؤوس إلا لله الواحد القهار ، فهل بعد هذا تسلمون ؟ وهذا هو السؤال الواحد الملقى عليهم ، ويعلنهم أنه قد نفض يده منهم ، وأنذرهم عاقبة أمرهم إن تولوا ، وليذوقوا وبال أمرهم وهم عالمون ، وليس يدرى متى يحل بهم ما يوعدون فهو غيب من غيب الله لا يعلمه إلا الله ، فهو يعلم سركم وجهركم وأمركم كله مكشوف له ، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه ، وإذا أخر عنكم العذاب فحكمة تأخيره عند الله ، فلعله يريد أن يكون فتنة لكم وابتلاء فيمتعكم إلى أجل ، ثم يأخذكم أخذ عزيز مقتدر .

وإن القلب البشرى ليغفل عما ينتظره من غيب الله ، وإن المتاع ليخدع فينسى الإنسان وهذا الإنذار يرد القلوب إلى اليقظة ، ويعذر إليها بين يدى الله قبل فوات الأوان .

وهنا يتوجه الرسول إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين ويستعين على كيدهم وتكذيبهم وهو وحده المستعان ، والكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على ما يصفون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ لبلوغ الوراثة للأرض لابد من الإيمان الصحيح والعمل الصالح .

٢ ـ فى القرآن وما يكشفه من سنن فى الكون والحياة كفاية لمن أراد التأثير فى الحياة .

٣ ـ جاءت الرسالة الخاتمة لتنادى بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية لتلتقى فى عقيدة واحدة ، ونظام اجتماعى واحد .